

الرسالة الثامنة

فضائح الفتن

بقلم

محمد أحمد الراشد

obeikandi.com

المعلقة الحادية عشر (١)

هذه مقالة لم تكتب ليقرأها الداعية المسلم قراءة مجردة فحسب، بل ليحفظها حفظاً، أو لينقشها على كفه إمعاناً في التذكر.

إنها قصيدة شعر، بل المعلقة الحادية عشر، ولو فطن لها زهير لعلقها على أستار الكعبة مع معلقته.

إن جُمَلها وحروفها شواهد لك تحتج بها كما يستشهد الناس بالأبيات، ومن أجل ذلك جاءت على طريقة الرمز والتمثيل.

ولئن لم توزن كلماتها بعروض فإن معانيها قد أحكمها الوزن، وأشربت حروفها بزخم من العاطفة جياش رفع ضرورة القافية.

إنها معان بالغة الأهمية في التحذير من الفتن، وموازين عاصمة من الخلاف، نستغل وقت العافية اليوم.

لترويجها بعد أن عانى من أثقال القيل والقال إخوان لنا بالأمس القريب والأمس البعيد.

إن التحذير من الفتن اليوم أدعى أن يستقر في القلوب إذ هي هادئة ساكنة، فيكون عندنا من الاحتياط ما يغني عن مضاعفة الوعظ إذا غزتنا الخلافات، وما نخال الصف المسلم يبرأ منها تماماً مهما ارتقى حالنا، لأن الشيطان حي وله إغراء.

إن هذه المعلقة لم يكتبها فرد، وإنما جُمعت نصف معانيها من أفواه فقهاء الدعوة خلال جلسات بحث عن طريق وحدة صف الموحدين.

فاستقبل الخير بقلب حر، ولا تقرب لهو السائين..

أوراقى مبعثرة... يتناهبها الأطفال

وأقطف الأزهار... وأدعى الجمال

خلعت ردائي... إذ أشكو البرد

ونصبتُ خيمتي في وادي العواصف... في ليلةٍ شهباء... ثم أعجب من أين يأتي السعال؟

مفارقات النفس ذات السر

أبيع بلا ثمن... وأشتري بلا خيار.. آه مني آه... مني السبب
كيف أربى الآخرين... وأنا أحتاج التربية؟
من لا يستطيع تصحيح أخطاء نفسه فلا يصح له أن يكون قيماً على أخطاء
الآخرين يصحّ لهم وينقد.



سبحان من خلق هذه النفوس... أى سر هو سر هذه النفوس؟
حساسة... متنوعة... متقلبة.
بيننا تظنها فى غاية الصفاء: تهزها مفاجأة فتطفو الشوائب.
وبينا تعاملها فتلمس نهاية السهولة: تدهمها قسوة فتدعها صلدة على أعنف ما
تكون القسوة... رضاها يُغلفه غنج ودلال... وغضبها يحب الاسترسال...
بين سلمها وحربها يوم، وبين حلفها وهجمتها ساعة، وبين سكينتها وصخبها
دقيقة، وبين ظننها الأول والثانى ثانية.
لا تخفى سيفها فى قراب... بل هو جاهز.
ولا تلجأ سهامها إلى جعبة... بل وتر قوسها مشدود.
من أهلها من تستفزّه كلمة ينسى معها قاموس التأخى، فيخرج إلى عدوان،
ويجرد أصحابه من كل فضل، كأن لم تكن بينه وبينهم مودة وخبز وملح.
ومن أهلها من إذا جهل عليه لا يحلم، ولا يعفو، ولا يصبر، ولا يرجو ما عند
الله، بل يجهل فوق جهل الجاهلينا.
ومن أهلها من لا يعاتب عتاباً مُنجماً أو مُعجلاً مضارعاً إذا ساء أمر، بل يصبر
ظاهراً، من غير عفو فى الباطن، ولا يحاول أن يقسرها على النسيان والتغاضى، وإنما

يكتُم في قلبه ثم يكتُم، ويظهر الابتسام، وفي الداخل يتعاضد الرُكَّام حتى إذا بلغ أطناناً ثقيلة: انهار السد، فيفجأ المساكين سيلُ العَرم، ويتكرر ذلك منه سنوياً، فيحاسب إخوانه على ما سلف منهم معه، وتكون كبيرة كمية الاتهام، لتراكمها، ويعين ذاكرته بدفتر التقويم، الذي أحصى فيه ما نسوه وأرَّخه وضبطَ ألفاظهم، وقد يحتفظ برسائل منهم ووثائق فيها هفوات لفظية ليستعملها أدلة في التجريم، فتكون ثم الآلام، وأصدقاء الآلام، وما هو أعتى من الآلام.



أساسيات

وخطبنا فضيلة الأستاذ المرشد عمر التلمساني - رحمه الله - فقال: إن أمرنا يفهم من خلال قضيتين.

رؤية الحق، وأن يرزقنا الله اتباع الحق.

وذلك دعاء النبي ﷺ: «اللهم أرنا الحق حقاً، وارزقنا اتباعه». وصدق - رحمه الله - .

إن دارنا أيها الإخوان دار عمل وعبادة، وأمر بمعروف ونهى عن منكر، وتهذيب وتعليم، وما هي دار فلاسفة يتجادلون، ولا متدى شعراء بضاعتهم اللسان، ولذلك فإنَّ عُرْفنا يقول بتأكيد أساسيات العمل، من الطاعة التامة، والتزام النظام والخُطة والمنهج، وعدم الالتفات على التسلسل المرجعي، وترك التقدم بين يدي المقدمين، وإن تربيتنا تقوم على تعميق أساسيات الإيمان، من ترسيخ العلاقات الأخوية وتعمير القلوب، وصون اللسان... نطرح الحسد... ونقيم التكافل.

ونخرج من ضيق القبليّة والإقليمية والشعوبية، إلى سعة التعارف ورحاب العمل المنتشر في الآفاق.

نضع مشاعر الجاهلية تحت أقدامنا، ونلبى أمر الزنجي الأسود إن كان هو الأعلم الأكفأ.

توجهنا إيماني، وشرطنا إسلامي، وشعورنا أخوي.

لا نعرف الضغينة.. ولا نسمح بالغيبة.



يا ترى كم موسوعة يمكن أن يؤلفها فضول القول الذي قيل أثناء الخلافات؟

وكم ساعة عمل ضائعة هدرها الوقت المستهلك في استنباط الظنون؟

ومن غرائب التربية: أن الجديد والشاب الناشئ تستطيع أن تعظهما وتدعوهما إلى ترك الرياء والتكبر والمراء، يعدّان ذلك منك إرشاداً وتربية وتوجيهاً، أمّا القديم المخضرم فإنك إن وعظته بمثل ذلك اعتبرها تهمة له، ورفض نصحك وزمجر، كأن لم تكن توبة رسول الله ﷺ في اليوم سبعين مرة آخر حياته.

أمنية الراشد الإخلاص

وخطبنا الأستاذ عمر ثانياً فتساءل:

ما الذى تغير بين أمس واليوم فى دار الدعوة؟

يجب أن نعترف بأن الأحداث حرفت بعضنا وأنشأت بينهم المرات... .

﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ۖ (١٤) وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرُهُ ۖ (١٥)﴾ (١).

لم تكن فى أيام الدعوة الأولى ماجستيرات ودكتوراهات، لكن النفوس كانت أصفى، أخى الذى أعدته الجماعة ليختلط دمه بدمى فى ساحة الجهاد: أصبحت أظعن فيه، كلنا علماء تنقصنا زيادة حب.

ليس يخفيننا أننا قلة، أو أننا بدون عدة، إنما الذى يخيف أن ننسى أنفسنا فلا نكون على صلح مع الله.

لو آمنا حق الإيمان لانتصرنا بإشارة إصبع، لا نطمع أن نعيش طول عمرنا مخلصين حق الإخلاص، إنما يكفيننا أن نتوغل فى الإخلاص الحق لحظة بمقدار ركعة.

ليس الدهاء يوصلنا، بل التوكل، وأن ندعو ونقول:

«اللهم لا سهل إلا ما جعلته سهلاً».

وتناصر المؤمنين بينهم أساس، وبهم يظهر قدر الله فى النصر.

﴿هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِصُرُوءِ الْإِيمَانِ (٢٢)﴾ (٢).

رحمه الله، وعجباً له من مرشد راشد أرشد فوفى.

ألا تستغرب....!!

ومن محاسن جماعة التبليغ: أن أحداً منهم إذا وقف ليعظ الناس: رفع أصحابه أكفهم يدعون له أن يصيب القول وأن يهبه الله البلاغة.

وليت كل دعاة الإسلام يفعلون ذلك إذا تكلم إخوانهم، لكن إغراء الشيطان فى ظروف الفتن ربما يجعل اللجوج الممارى يتمنى إذا تكلم أخوه المخالف له فى اجتهاده

أن يتلعثم ويطيش، وينسى النحو والفصاحة، وأن يقض مضاجع سيبويه.

فلا حول ولا قوة إلا بالله، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

كان الشافعي يقول: ما ناظرت أحداً إلا وددت أن يظهر الحق على لسانه.

أما أخى فيريدنى أن أخفض معه المرفوع.

إن مراقبة تواريخ الفتن توضح أن كل من فجر فى الخصومة كان من الذين لم يحصلوا على التربية الكافية فى أول أمره، وشرف النسب وبيوت المروءة والكرم تميل بالمخالف إلى العفة والسمو فى أدب الخلاف.

إن الحساسية تبلغ مداها لدى الداعية السوى، ونفسه تعاف كل جو خائق غير نقى، إن روحه لا تطيق الأجواء المغبرة وانعدام الأوكسجين، ومؤلة هى لفحات التراب.

أسلوب فى القتل هو الخنق، ونمط فى الإرهاب الطائش هو العصف.

وحقوق الدماء أين؟

الجنة هدف، طريقها الإيمان، والوسيلة الحب، والحارس النظام.

فى بادئ الأمر قد نميل إلى الحلم مع المسيء، ولكن عند اللجاجة تكون العقوبة هى الحكمة.

أمور الخلاف المرير قد ترفع الرقة بين المختلفين، ويكون البأس بينهم عنيفاً، إذ الأسباب تافهة.

إن المخالف إذا ارتكب إثماً بحق الجماعة ولم يعاقب: تلفت وانتظر، لعل عقوبته تأخرت، فإذا مر زمن كاف ولم يعاقب: ظن أن الجماعة تجله أو تخافه، فيرتكب إثماً ثانياً أكبر من الأول، حتى يكون الشقاق له عادة.

مثلما تجب مكافأة المحسن: تجب معاقبة المسيء، وإلا تجرأ آخرون على الإساءة، لما يرون من عدم محاسبة المسيء الأول.

إن دماء الشهداء إذ تسيل تكتب واجباً على الأحياء: أن يسيروا بلا خلاف فى إتمام الشوط الذى بدءوه.

ذلك أول الحقوق الشخصية التي تثبت للشهداء، فمن ذا الذى يطالب بحق الدم الضريع؟

وأسفا على يوسف، باعه إخوانه بثمان بخس، وطفى عصر الضجيج.

رعوس.....!!

ذهب المترفون يطالبون بحقوقهم، وأقسموا أن لا حلم ولا مسامحة بينهم، لكن حمزة لا بواكى له...

إفساد الأعداء الخارجين وكيدهم لنا يزدنا تماسكاً، لكن النخر الداخلى يوهى ويدهى، ويلهى ويسهى.

وأثناء الفتن تتسرب أخبار الدعوة إلى العدو، فإن عاتبت: أنكر عليك أن تتهمه بالإفشاء، وقد صدق، لكنها اللامبلاة، وأشنع ما فى الفتن: أن أصحابها جميعاً يرون أنفسهم رعوساً، فيضع الحساب عليك ولا تدرى كيف التفاهم ومع من يكون؟ لا يرون أنفسهم عشرين مخالفاً، بل يرون أنفسهم عشرين زعيماً قائداً فقيهاً مجتهداً فيلسوفاً...

وبعض الدعاة يكون الواحد منهم على أحسن حال وأجمله، لكنه إذا اجتمع فى عمل واحد مع أمثاله: اختلفوا وتناحروا، ومثل هؤلاء يستفاد منهم أتباعاً، ولا يصح أن نجعلهم فى المقدمة.

يريدون تصفية العدو، ونفوسهم أحق بالتصفية.

وأصدق ما قاله الأستاذ مصطفى مشهور فى هذا الباب - تميزه بين اثنين - فقال: هناك داعية عامل، وهناك عامل نفسه داعية !!

شفقة.. لكنها مهلكة..

ويفكر مشفق على وحدة الصف وعدم خسارة الجماعة للذين الذين عشقوا الرياسة بأن يمنحهم ما ييغون، ويسترضيهم، جمعاً للجهود، وحرصاً على كل الطاقات أن تظل فى خدمة القضية، ويقول: يريدون الأبهة والمكانة، فلنعطها لهم، لعلهم يتدربون، وتتحركهم الأيام فيفيقون. وترهقهم المسئولية فيزهدون، ولنشركهم فى الشورى لعلهم يرشدون، وإنه خلاف بين الأقران، ويستحسن أن نرضى كل

الأطراف، ثم ينادى يحث: هيا هيا، ليحتضن كل منكم إخوانه، ثم يرجع وقد ظن أنه قضى بحله العاطفى هذا على فتنة.

إن مثل هذا الاقتراح هو مذهب فى سياسة الجماعات خطأ، واجتهاد فى التربية غريب، فإن إتاحة الفرصة لغير ذوى الأهلية والكفاية مهلكة لهم، والاستشراف للمسئولية علامة خلل فى التركيب النفسى للداعية، وإنما تنبثق العناصر الريادية من خلال السير انبثاقاً تلقائياً، وتتم تنمية المواهب من خلال منهجية تربوية شاملة، لا من خلال الجرى مع تطلعات الفضول، وتلك الطريقة هى من سياسة الحكومات الائتلافية، بحيث ترضى كل الأطراف بمقاعد الوزارات، وتستحدث لرجال الائتلاف عشرين وزارة دولة ومائة وظيفة استشارية لا تدعو لها ضرورة، بل على حساب حقوق الشعب وعلى حساب النظريات الإدارية، وأما سياسة الدعوة الإسلامية فأنبل وأسمى وأعف، ولا يتقدم فيها إلا القوى الأمين المتجرد.

أصول اصطناع الرواد

إن التربية الريادية تتطلب تعويد ذوى القابليات والذكاء من المؤمنين على التفكير الحر، والقياس، والاستقراء، والتحليل، والتعليل، وتمرينهم على استعمال القواعد المنهجية والمنطقية، وهذا يتطلب تنمية قابلية الوصف الدقيق لديهم، واكتشاف العلاقات وفهم الواقع، وكل ذلك من أسس الاجتهاد وطرائقه.

لكن هذا التعويد والتمرين لا يصح الاستطرد فيهما بشكل متصل بل لابد من أن يتدخل الأمراء فى اتخاذ القرارات الواضحة الجازمة، شفقة على المتدربين الصاعدين، وتخفيفاً عنهم، لئلا ترهبهم لحظات التردد عند منعطفات الطريق المهمة وفى اللحظات الحاسمة.

بمعنى: أن تدربنا لا يكون فى فراغ، بحيث نجعله مقدمة لتنفيذ وممارسة لم يحن أوأنها بعد، بل هو تدريب فى ظل إمارة متصدية وعمل سائر، وأن التنفيذ مختلط بإنماء الفكر وبالتخطيط اختلاطاً دائماً وجزء من التدريب أن يلحظ المتدرب اتخاذ الإمارة للقرار الفعلى، ليس أن يلحظ مجرد التمثيل الافتراضى .

إن الحرية اللازمة للمتدربين لا يمكن أن تكون تامة وليس من مصلحتهم ذلك، وبالتالي فإن حدود دار الشورى لا يمكن أن تكون واسعة مترامية الأطراف، لأن

القرار يصعب عندئذ، لكثرة المتناظرين، أو يكون الوصول إلى القرار ببعض تكلف، فيكون ثم الطيش لا الاجتهاد، وتكون نزعة النفس في المشاركة الشورية قد لُبِيت وأُشِبت، على حساب الصواب.

قد يقول قائل: إن الرهبة التي تعترى الصاعد في اللحظات الحاسمة هي جزء من المعاناة التي يجعلها فقه الدعوة نقطة ارتكاز التربية الريادية، وبالتالي فإن سعة الممارسة الشورية مطلوبة.

فنقول: نعم هي جزء، وهي مطلوبة، ولكن كمشاهدة ومتابعة، بحيث يرى الصاعد عملية نضوج القرار، ويتاح له أن يجرب مقادير استيعابه لدلالات الطرف، فيقول قوله متمكناً، مشيراً، ولكن بنية التدريب على القول، وأما صناعة القرار في أصل الأمر فملك من خرجته من قبل هذه المعاناة بنجاح، إذ ليس كل متدرب متخرج، ولا كل ذكي مؤهل للقول، ولا كل من عانى من ضغطين وصل، لأن حق صناعة القرار نتاج معادلة صعبة نادرة التحقق، أولها النية الخالصة وحسن التوجه، وآخرها المعاناة والتدرب، وبين البداية والنهاية ذكاء وعلم ونفس سوية، ومعرفة أفقية بالساحة العريضة، وتأمل عمودي في التاريخ الممتد.

الوزن المسترسل

إن الديك الفصيح إذ هو لا يزال في البيضة يصيح.
قول للعامة يجب أن لا تغفل عنه منهجية التربية الريادية، وكم للعامة من أقوال حكمية، وإحساسات سليمة.

إنك لا تستطيع أن تفتعل الرائد افتعالاً وتصطنعه اصطناعاً إذا لم ينهض به قدره وترشحه فطرته.

لن تخطيء عينك الرائد أبداً، ولعلك تصادف فتى من ناشئة الدعوة لم يبلغ مبلغ الرجال، فتدرك أنه لها، وليس هو بالذى يميز مقدمات الدعوة بعد.
أول ما تقع عليه عينك، ومن النظرة الأولى تقول: هذا مبتغى.

ولثل هذا نفتش عن منهجية التربية، ونحاول تلمس المداخل التي تأخذ به صعداً.

لو كانت مجرد صيحة لتركنا كل فصيح يصيح، لكنه علم الدعوة يقول: لا، ليس هو الصياح، ولا مجرد العواطف، ولا قفزات المستعجل، إنما هي أنغام الحداء التي تقود القوافل فتوصلها، ولا بد أن نُعلِّم كل فصيح هذه الصنعة.

وفي الأنغام تجانس وتوافق، وجمال وتناسب، وتدرج واستمرار، من الصفات المتماثلات، ولكن فيها أيضاً من النقائص السرعة والسكون، والرتابة والتجديد، والعلو والهبوط، وكل هذا التماثل والتناقض لازم لتربية الرائد، فمتماثلاته تؤدي به إلى استهواء النفس، ووحدة الفكر واتساقه، ومنهجية السير، والثبات على الارتباط بالمنطلقات الإيمانية الأساسية، وتناقضاته تمكنه من التكيف مع الظرف، والمرونة إزاء المفاجأة، وإتقان التملص والإفلات والفر إذا لم يُتَح له الاقتحام ومواصلة الكر.

أضرار التقليد الجزاف

إن الإسراف في إشراك كل طبقات الدعاة في الشورى، وكثرة تعليق الأمور على اتخاذ قرار شورى ولو كانت صغيرة، وكشف الحشيات التي تؤدي إلى القرارات، وإطالة مناقشة الخطط مع تنفيذها قبل إقرارها، كل ذلك أدى وما يزال يؤدي إلى إنتاج دعاة فضوليين، يكثر لغطهم ويقل عملهم، وبالتدرج تنصبغ مجالسهم ببصغة الغيبة، وخشونة الألفاظ، حتى تكون تهورات اللسان أمراً مستساغاً، وتُغتال فضائل المجالس التي شهدت بها قواعد التربية الإيمانية اغتيالاً، ويصبح الداعية المشارك فيها قليل الاحترام لعناصر الرعيل الأول، كثير الجرأة عليها، وأقرب إلى سوء الظن والغمز، طويل النقاش، عريض التحدى.

وليس ذلك عرف المؤمنين أبداً، ولا سَمَتهم الذي ورثناه، إنما ورثنا الحياء وعفاف اللسان واحترام الكبير وتبجيل السابق، والتأول الحسن وترجيح العذر، وجمال اللفظ، والاستغفار للذين سبقونا بالإيمان، وتكرار الدعاء للمربي والحادى.

الشورى حق، وتطبيب خواطر الصاعدين حق، وإشراك المنفذ في صناعة القرار حق، لكن ذلك كله إنما يكون في الحدود الوسطى، وبالإنصاف لا بالهوى، وبالمعروف ولمصلحة الدعوة لا لمجرد التطلع، وإذا لم نقيّد بالضوابط في الممارسات الشورية فإن الأدواق ستفسد، ويكثر الصخب الذى يرهق الثقة المؤهل للتقدم، فينزوى، حفاظاً على عرضه وسمعته، ولئلا يقسو قلبه عبر قيل وقال.

نقول ومع الأسف: إن الغوغائية التي صنعتها الديمقراطية الحديثة فى الشعوب يمكن أن تظهر بصورة أخرى فى أوساط دعاة الإسلام إذا أسرفنا فى الشورى، ونحن قبل الداعية المشاكس: نعيب الاستبداد الفردية ولكن الشئ إذا تجاوز حده أذى .

إن الاجتماعات الشورية ميدان يستطيع خلاله العقلاء، أن يبدوا حكمتهم، أو أن ينصتوا لحكمة غيرهم، وليس فى الحياة أذى ولا أطيّب ولا أهنأ من أن يُجرى الله على فيك حكمة تقرأ بحروفها عينك، أو أن تصغى بأذنك وقلبك لصواب حكيم يهديك ثمار عقله مجاناً، أما أن تتحول رحاب التشاور إلى تلاوم جاف، وتحديات باردة، وجدل مستطيل، فهناك يجد الهوى ثغرتة ليلج، وهناك تنعصر القلوب وتنزف الجراح.

ويصف البعض تضيق الشورى بأنه توجه من أولى الأمر خاص يستجلبون به مدهانة إخوانهم، وهذه تهمة باردة، فإن المدهانة خلق ضعيف يدل على اختلاط فى النية، وعندنا أن الذى يحاول تقليد مربيه فى كل اجتهاداته، ويسارع إلى إقرار ما يذهب إليه بلا مناقشة، إن هو إلا داعية قليل الموهبة، ضعيف التفكير، أو هو متزلف تنكر طريقته قلوب المؤمنين، والفؤاد الحر يؤذيه التعكير.

إن الطاعة الواعية هى أصل تفسيرنا للجنسية، كما أن الحوار وتقليب وجوه النظر هو أصل مذهبنا فى صنعة الريادة، لكن الأدب، والرفق، واللفظ الجميل من الصدر السليم أصل ثالث قرين.

الإبداع يحتاج الحرية

البعض يريد القائد آلة ميكانيكية بيد الجماعة، تشغله بأضرار، وهى التى تُنطقه وتخرسه، وتحركه وتوقفه، وذلك فهم يابس لنمط من العلاقة أشد يبوسة، ليس يأتى بخير.

بل القائد كتلة مشاعر، ومجموعة عواطف، وذهن يتأمل، وقلب يتجول. يجب أن ندع له مجال الاجتهاد حتى وإن قيدناه بخطّة، وعلينا أن نترك لفراسسته دوراً، ولذوقه مجالاً.

أحياناً نقيد القائد، ونجرده من أى حرية فى اختيار الأعوان، ثم نطلب منه أن ينجز المعجزات، أليس ذلك من العجب؟

ما كان علىَّ **رضي الله عنه** عاجزاً، بل هو قمة في التقوى والعلم والشجاعة، ولكن خذله أصحابه .

ولئن قبلنا للقائد أن تقيده شورى النخبة، والقدماء، وأهل الحل والعقد من العاملين، فهل نستطرد لتقيده ارتجالات الجدد، ورغبات المستعجلين، وظنون المتهجسين، وأهواء العاطلين؟

إن أقراناً يتنافسون دهرأً ربما يكون شرط صلحهم: نحر الأمير فهناك الظلم .
ولربما استجاز اللاحقون التشويش على بوصلة الجيل الرائد، فهناك المتاهة ..
هناك يكون انقلاب الموازين:

ساقة ترتاد..... وقادة تنقاد...

تلك هي الفهامة .

من أساليبهم: اسدنى وأسندك، يتواصون بذلك، في عقد، لكن لا تشهد له أخلاق الإيمان، فهو غير مبارك .

ومن طرقهم: المحاصرة المتقنة، فينفر الثقة .

ويبلغ دين المرء أحياناً أن تكون فيه مخادعة .

كم من فتنة يبرع أصحابها في تغليفها بغلاف، فلا تُرى، ويظن الواعظون أن ليس ثم شيء، فيشكرونهم .

ويبلغ الأسلوب الهجومي الصدامي عند أحدهم أسلوب الأعرابي القاسي الذي قال: لتجدنني ذا منكب مزحم، وركن مدعم، ورأس مصدم، ولسان مرجم ..

ثم يهز الأمير الفقيه قلبه هزة الإيمان..

وبسط لنا الأستاذ المرشد عمر التلمساني - **رحمه الله** - أصول فقه القضاء في الفتن فقال:

من الموازين في قضاء المحاكم الدعوية في الفتن، أو معالجة القيادات واللجان لها: تعجل البت ، فإن تأجيل الحكم أو تأجيل السعى للإصلاح إنما هو فتح لباب الشيطان، يغرى بالتمرد، والتسيب ليس صحيحاً، وقد تكون هناك ملاحظة غير مقصودة تأتي بضرر، وإنما يصح التأجيل لحين، لضرورة التحقيق، أو إلى فترة نقدر

فيها ميل النفوس إلى السكون، أو لترك فرصة للمخالف للتأمل في معانى التوبة، وهذه فسحة لا ملاحظة، وإرخاء حبل وليس تركه على غاربه.

وكذلك من الموازين هنا: أن لا نطلب العدل والحق فقط، بل نطلب الرحمة أيضاً، والرحمة فوق العدل، والمخطئ محتاج للرحمة، وكان رسول الله ﷺ مثلاً لم يفصلوا من أول خطأ ولا ثانى خطأ، بل لما تكرر الخطأ كثيراً، والمسألة خاضعة لتقدير المصالح والمفاسد لا الحكم بجنة أو نار، وإنما نجتهد اجتهداً.

لكن لا يصح تحميل قائد أوضاعاً مهترئة، والفصل اضطراب يضطر له، وهناك أصحاب نزعة انفرادية طبيعتهم عدم التقيد بالأوامر، وإذا وضع في الصف يُفتن رغماً عنه، وهناك تكون الرحمة بأن نغفیه من العمل والمسئولية لنحفظ إيمانه، فضلاً عن أن وجوده يسبب الحرج.

وهذه المعانى هي تربية لنا جميعاً، ثم هي مسألة تنظيمية ثانياً، فتجديد أحد أو نقله من مركزه: أمر اختبار له من باب، ويفسر بموجب القواعد الجماعية من باب آخر، أى القواعد القائلة بأن كل داعية هو جندي يعمل في الوطن الذي يوضع فيه، ومن الافتيات على مصالح الدعوة العليا أن نعتبر الأوامر بإجراء بعض التغييرات انعكاساً لموقف شخصي أو حقد أو تنافس، لأن الانسجام مطلوب، وكل له أجره، وقد يكون أحد صاحب كفاية لكن إخوانه لا ينسجمون معه.

ومن الموازين: اجتماع عدة مفسد وأضرار في آن واحد، من العدو أو من بعض الدعاة الساذجين، بحيث يكون وضعنا مرهقاً، كثير الإتعاب، ولا يحتمل مزيداً من المتاعب باختلاف المختلفين، ويصبح الحزم في البت من باب الرحمة بالدعوة، وهي أرجح من الرحمة بالأفراد.

كذلك لا ننكر أن الأخ قد يُحترم لسبب آخر غير مكانته الإدارية، كعلمه الشرعى مثلاً، أو سابقة له، والعفو عن العالم المخطئ أسبابه مضاعفة، ومع ذلك فالتفريق واجب بين العفو عن حقوقنا الشخصية والعفو عن الحقوق الدعوية العامة، فتتسع هناك، مع شدتها على النفس وتضييق في الأخرى.

ومن القواعد أيضاً: كثرة التداول في أمر الاختلاف لإنضاج الرأي ومعالجته،

دون التسرع أو شبه الانفراد، لكن الاستطراد في ذلك في وقت الفتنة: زيادة في الفتنة، وإعنات وسوء الظن أحياناً حزم من المسئول، كما ينسب لعمر رضي الله عنه.

وهكذا فإن الحكم والموقف في قضايا الاختلاف هو شد وجذب بين عدة موازين، يميل بك ميزان إلى الرحمة، ويشدك آخر إلى الحزم ولكل حادثة ظروفها الخاصة التي ترجح أحد الموقفين، ولكل حادث حديث، ولكن يجب أن يكون من القضاة والقادة خلوة إلى أنفسهم لاستدكار هذه المعاني والموازن، ويتركون قلوبهم تتأرجح مدة بين يمينها وشمالها، ثم يهزونها هزة الإيمان لتستقر بعدئذ على قرار.

رحمة الله عليه، كم كانت هزاته هذه منصفة...

ويلاحظ في أمر الخلاف أنه كلما كان فكرنا واضحاً وقواعدنا الإدارية واضحة: قل الخلاف جدّاً، وكلما كان التعميم: كثر التأويل، ويدعى كل واحد أن شرحه وتفسيره هو الصحيح.

فالوضوح وتخصيص الدلالات هو ضمانة ضد الفتن أكيدة.

ما أحلى النصوص المرنة الفضفاضة في أيام التحاب، لكن الخلاف إذا اشتد فإنها تكون مصدر متاعب، وتكثر التفسيرات.

لك تأويل لها، ولي تأويل، وأشد فتشداً، فيكون التعطيل.

ويصح أن نقول: إن الأوضاع الاستثنائية ووجود الفتن تجعل اتباع حرفية نصوص الأنظمة أحياناً مرجوحاً، والخروج عنها جائز لتحقيق مصلحة، لكن لا يخرج عنها أحد باجتهاده، ولا تخرج عنها المجموعة الصغيرة، وإنما تخرج عنها الجماعة بإجماع أو بقرار شوري.

وتعصر القلب مرارة حين لا يجد المخلص أمامه لتجنب الدعوة أضرار الفتنة سوى اللجوء إلى قضاء سليمان - عليه السلام - بين الوالدين، الحقيقية والمزيفة، ضحت به الأم الحقيقية رافة أن يشق إلى نصفين، فيكون تحمل أسوء السيء شفقة على الدعوة أن تنشط شطرين، وفيمن يظهر السيء أبرياء يأخذون بالظاهر، والسر يلجم المخلص أن يبوح به، ولو صرح به لاقتنعت نفوس، وهدأت قلوب، لكنه السر.

وتتضاعف المرارة حين يتوهم المقضى لهم أنهم على حق، وأنهم كسبوا جولة، فتكون لهم صولة، لا يدرون أن سد الذريعة أنجاهم.

إن الجدد لا يلغطون إلا إذا لغط بعض القدماء، ومن طبائع النفوس التقليد، ومن سنَّ سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة.

• وخطبنا الثقة فقال •

إن حزن القلب إزاء الإساءة فطرة، وفي تعزية الله تعالى لرسوله ﷺ عبرة، إذ قال: ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكَذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَاعُوا اللَّهَ بِمَحَدُونَ ﴾ (١).

فكيف بمن هو أقل مثلنا؟

وكيف إذا كانت الإساءة لا من كافر طبيعته الإساءة بل من مسلم، بل من أخ لك في الصف؟

إن التقوى تدعونا إلى أن نتحكم بألسنتنا، ثم ندعو الله أن ينسينا ويمحو من ذاكرتنا حوادث الإساءة لنا كي تبرد قلوبنا ولا يستمر غليانها.

لا نقول إلا ما يسدد ويقارب، وما يرضى الرب، أما ما يفرق وينبت الضغائن فلا، بل نصمت، ولا تتحرك ألسنتنا إلا بخير، وتلزمنا تقوى مضاعفة عندما تفور قلوبنا.

إساءة الكافر لنا تقويننا، وإساءة المسلم تؤذينا.

الطغاة خدمونا، لأنهم ظلموا، فملك الناس الشوق للحرية... من معاناة الظلم والمحن يتعلم الشعب الحرية، لكن الفتن تكسر النفوس، وتخذل الهمم.

إن المحن مقادير من الله يليق لها الصبر لتتحول إلى صالحنا، بإذن الله، وهي تجارب مربية، وسينهار كل ظلم يوم تتحد قلوبنا.

أما الأسباب الداخلية فتؤذينا، والأبنية الجماعية لا تنهار بأسباب من خارجها، لكنه النخر الباطن.



الابتسار طريق الاندثار

يجب الرجوع إلى القاعدة الأساسية في الاهتمام بالكيف لا بالكم، نهتم بالعمق وبخط رأسى أكثر من الخط الأفقى .

تربيتنا يجب أن لا تعتمد التلقين فقط .

نحتاج إعادة الصياغة وإطالة الركوع .

كم من تهور سببته الحسابات العاطفية والنزعات التكاثرية، كان منه الإحباط والتدمير المعنوى؟ .

لذلك فإن الحلول التوفيقية لقضايا الفتن لن تفعل شيئاً سوى أنها تؤخر انفجار الموقف .

إنها كمثل قربة مخرمة كثيرة الثقوب، لا تدرى بعد ترقيعها متى تفتق عليك وترش ماءها؟

إن لغة الشعر لا تصلح لدار القضاء .

إذا خالفت مجموعة بقية الجماعة فإن صيغة الموازنات والإرضاء قد تكون فاشلة أحياناً، ومن الخطأ أن يُحل الإشكال بتأشير رجال من هؤلاء يزاحمون البقية، ففى ذلك تكريس للخلاف، وفيه إغراء لا للمخالف فقط فى أن يسخر كل طاقاته الإبداعية لمعاندة الآخرين وإظهار خطأ مذهب الأكثرية، بل حتى الإمارة التى انشق عنها المنشقون ستلتهى بقضايا مفضولة، وستسير مع المخالفين بسيرة مداراة دبلوماسية، أو ستبذل من طاقتها مقداراً كبيراً لتفنيد أقوال المقابل ورصده ورد ما قد يستجد على لسانه بعد الصلح .

إنها معادلة صعبة، والفصل مع قسوته قد يكون أفضل وأكثر تحقيقاً لمصالح الجماعة .

المعالجة الظاهرية لا تجدى، لأن محاولات الباطن ستظل تعمل، تحفر وتنخر بعيداً عن أنظار المراقبين .



إذا قضى القاضى بدينار مختلف فيه وهو غضبان متوتر منفعل، كان حكمه مخالفاً لسنة القضاء، فكيف نحكم الدعوة ونسوس أمورها فى مجالس يسودها الغضب وتسيرها التحديات؟

وميل القاضى إلى أحد الطرفين فى حكم بدرهم يفتح باب الطعن فى الحكم، فكيف بعصبية الشللية التى تعطى للانحياز بعده الجماعى العميق؟

قل أعوذ برب الناس

ووصف لنا الثقة حيصة فى ساحة إخوانه فقال:

ليس هو الانشقاق فقط بل تقاعد، بل انسحاب، بل تمزق.

لذلك لا تفيد إلا المعالجات الحاسمة، أما المداواة السطحية فلن تجدى شيئاً.

من الخطورة بمكان تسوية أرض المعركة قبل أن تنزع منها الألغام أولاً.

بعض الناس يلوح لهم براية من بعيد، فيقصدها منها من غير تمحيص

يريد البعض أحياناً تحطيم أحد يضيعون به ذرعاً، لحسد أو غيره، فتثار حوله التهم، لكن العملية تُفلسف فى صورة دعوة لمذهب فى العمل جديد واجتهاد مبتكر، وهى زخم شخصى ليست أكثر.

إن أشنع الظلم أن تتخذ من أخ لك هدفاً وتجمع الناس والجموع ليرجموه معك. المحورية أخت الحزبية.

والتنازع على المواقع بالوقية باطل.

وأول تلقين الشيطان لصريعه أن يعلمه أن يقول... «أنا».

نحن دعاة، لم نجتمع، ليكره بعضنا بعضاً؛ وإنما اجتمعنا لتعاون على مشقة الطريق.

وهل يدرى المفتن كم يلهى من معه من الدعاة عن قصودهم، وكم يهدر من أوقاتهم إذا انصرفوا له ناصحين ودخلوا بينه وبين إخوانه مصلحين ومحكمين؟ إنها جهود وأوقات تذهب هدرًا.

إن الممارسة السياسية تكون أحياناً قليلة الجدوى، لا هتزاز بناء الجماعة بالخلاف،

وتكون الأولوية عندئذ لإعادة البناء ودرء الفتنة، وتكون التربية هى القضية الرئيسية .
إن الزمان لا يُسلم إلى عاطفى متسرع، إنما يعطى للعقلاء أصحاب التقوى والعلم .

وقد صدق الثقة... ثم صدق، فإن تجاربنا تنطق بأنه لا يجوز النظر إلى ظاهر الفتن، وعزوها إلى السبب الأخير، ليظن ظان أن تلافى ذلك السبب البسيط أمر سهل ممكن، فيعدل عن الحزم إلى مجرد الوعظ، بل الواجب أن نغوص بعيداً لنرى الأسباب الحقيقية للفتنة، وحيثياتها الكثيرة، وجذورها القديمة، لا نكتفى بمجرد الحلول العاطفية للمشاكل، بل ننزل إلى أصول البلاء .

إنها ليست القشة تقصم ظهر البعير، لكن الطارئ الذى لا خبرة له يظن ذلك .

وقد يخالط باطل المبطل بعض الحق، ولكن ابتداء أمر كل فتنة هو انحراف فى النفس ليس لباحث أن يغفل عنه .

إما أن يكون تأسيس واستمرار الدعوة على مبادئ، أو على رجال، فإن كانت المبادئ فهنالك ظن الخير، وإن كان الاجتماع على رجال ففي ذلك نظر، واقراً الفاتحة على هذه الدعوة أو بالأحرى... اقرأ الخاتمة..



طفحت فأشغلت (٢)

أصعب حالات الدعاة الذين يرابطون مع أمير على أمر جامع: أن تنقلب عند بعضهم الموازين، فيغدو الإيجاب سلباً.

وإنما تؤسس الجماعة الإسلامية على قاعدة الولاء لله تعالى ولرسوله ﷺ وللمؤمنين، فيكون الحب والبغض في الله تعالى، ويكون عرض أعمال الرجال على الحق، فنقبل منهم وندع.

ولكن يغفل البعض عن هذا المعيار أحياناً، ويؤدى اختلاط الأصوات في أيام الصخب إلى ذهول عنه، ويظهر نوع من ولاء الداعية لأساتذته ومربيه بالحق والباطل، بأن يلتزم موقفهم وتأويلهم على طول الخط، منتصراً لهم، فتكون بداية الانتكاس، إذ لا معصوم، ولا يؤذن لبشر يزيد إيمانه وينقص، ويصيب رأيه ويخطيء، أن يحتكر الولاء.

فهو يودهم ويواليهم لا لسبب شرعى يوجب الفقه، من نصر مظلوم أو تعاون على بر أو طاعة أمير، وإنما بسبب العلاقة الخاصة، حتى لو كانت الأسباب الشرعية ترشد إلى قطع ما هو فيه من ولاء، من وجود ظلم عند أصحابه الذين والاهم، أو الانتحاء جانباً عن الجماعة، أو الخروج عن خطة الأكثرين، أو الانحراف والشذوذ والتفرد في الاجتهاد.

حروف خارج الأبجدية

ويتضاعف السلب المتولد من هذه المواد الشخصية عندما لا يقنع الواهم بإظهار الولاء فقط، وإنما يتعداه إلى الدفاع والذب عن صاحبه، ويسخر لسانه لنقد الآخرين، فتكون وخزات القول الجارح الحديد التى تؤلم قلوب النبلاء، فإنه:

أوجع من وخزة السنان لذى الحجا: وخزة اللسان^(١)

وما كان السلف عليه السلام على مثل هذا، بل كانوا يقلون الكلام حتى فى المباح، وحيث لا أذى، إبعاداً لاحتمالات الزلل عند الإكثار، وقد وصفهم إمام المحدثين بالبصرة عبد الرحمن بن مهدي فقال: «أدركت الناس وهم على الجمل».

(١) عيون الأخبار لابن قتيبة ٣/ ١٨٤.

قال الإمام أحمد بن حنبل معقّباً:

«يعنى لا يتكلمون أى: ولا يخاصمون»^(١).

فإنما هى جُمْلُ يسيرة من الكلام بحروف معدودة، ليس وراءها إيذاء أو تخذيل أو تعكير قلوب.

وهكذا كانت الحياة الإسلامية تضى حين يقودها الصالحون، بل الحياة الإنسانية حين تصفو فتحكمها سنن الفطرة، فيتوارى المهذارون، ولو استقرأت التاريخ وأوصاف المجتمعات فإنك:

(تجد الوحدان والجماعات أقربها إلى الصدق والجد: أقلها كلاماً، يشغلها الفعل عن القول، ويغلب فيها الفكر واليد على اللسان، وأقرب الناس إلى البطالة والهزل أكثرها كلاماً، وأدربهم لساناً، إلا قليلاً).

لو اتصل اللسان بالفكر لقيده الفكر، ولو صحب القول العمل لوقّره العمل، ولكن اللسان يتقلب فى هراء لا ينفذ، ويصرّب ألفاظاً لا تحد، قولٌ بغير حساب، وقشر ليس فيه لباب.

وكم قال الناس قديماً فى كثرة الكلام وقلّته، وفى ثقله وخفته وما يتأمل متأمل فى أحوالنا إلا يجد تصديق ما قيل، فحركة أُلستنا تربو كثيراً على حركات القول والأيدى، وابتكارنا أكثره فى الكلام لا فى النظام، وفى القول لا فى الفعل.

رحم الله مَنْ جعل عقله على لسانه رقيقاً، وعمله على قوله حسيماً^(٢). فهو اللسان وراء الحاليتين.

وذلك سبب الوصية بسجن اللسان، لما قال:

تَحَفَّظْ مِنْ لِسَانِكَ لَيْسَ شَيْءٌ أَحَقُّ بِطَوْلِ سَجْنٍ مِنْ لِسَانٍ

أما إذا أطلقته حرّاً، فهناك تكون المتاعب...

إن اللسان إذا حللت عقاله أَلْقَاكَ فِي شَنْعَاءٍ لَيْسَ تُقَالُ

فالعاقل والقيد أليق لكل لسان، وأحوط، وأبرأ، لأنه ليس من أحد يقيلك

(١) كتاب العلل ومعرفة الرجال للإمام أحمد ١/٢١٨.

(٢) الشوارد لعبد الوهاب عزام / ٩٩.

ويعفبك من سقطاته، إلا الأقل، فانتبه.

وياك أن تُستدرج إلى وادى الأذى متوهماً القيام بمهمة وعظ الآخرين، فإن التشهير يزيل نُبل الموعظة.

(قال الشافعي رضي الله عنه): مَنْ وعظ أخاه سرّاً فقد نصحه وزانه، ومن وعظه علانية فقد فضحه وشانه.

وقيل لمسعر: أتحب مَنْ يخبرك بعيوبك؟ فقال: إن نصحتني فيما بيني وبينه فنعم، وإن قرّعتني بين الملأ فلا ^(١).

هذا الإيذاء إذا كان مجرد اللسان يرسل الكلمات هذراً، فكيف به إذا حسنت زيفه فنون البلاغة والنظم وجُندت الأقلام واستجاشت العواطف نبرات الخطابة؟ الخطبُ أدهى عند ذاك بلا شك، وأشدّ إذا ساعد المحيط خلال الفتن.

فكم من خطيب قام فيها مثرثراً فطرّى لنا من يابس القول ما طرى
وكم شاعر قد أرخص الشعر دونها وكم قلم فوق الطروس بها صرّاً ^(٢)

ثم تتحدر الحالة إلى سوء أكثر حين لا يكون ثمّ طرف واحد يمنح لسانه الحرية، بل أطراف أخرى تدافع عن نفسها، وتفنّد المزاعم، فيثور الجدل، فيعم الصحب، كأنك في سوق الصغارين حين يزدحم الطُّرق، فيخفت صوت هتاف الإسلام، فتضمحل الحماسة.

ملأنا الجوّ بالجدل اصطخاباً وكنا قبلُ نملؤه هتافاً

وما زلنا نهيم بكل وادٍ من الأقوال نرسلها جُزافاً ^(٣)

وهذا لأن الشر له قابلية التسلسل، وهو وُلود، سريع النسل، كثيره، وليس الحزم إذا رأى المخلصون أوائله إلا في أن يتحاملوا، ليسدوا الطريق أمام استطراده، فإنه . . .

إذا دُفع الشر القبيح بمثله تحصل شرٌّ ثالث وتولدا

وأمتست دواعي الشر ذات تسلسل مديدٍ وصار الشر في الناس سرمداً

(١) إحياء علوم الدين ٢ / ١٨٢ .

(٢، ٣) للرصافي في ديوانه ٢ / ٢٨٠، ٢٩٨ .

إذا أيقظتني للعداء اعتداء شربت لها من خالص العفو مُرفدا
وأضرب عن جهل الجهول ولم أكن لأضرب في الأيام للغدر موعدا ^(١)
وكان التحالمُ صفة النبي ﷺ، فكان يغضب ويحمرّ وجهه الشريف، ثم لا يعاقب.

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قَسَمَ النبي ﷺ قسماً، فقال رجل: إن هذه لقسمة ما أريد بها وجه الله !
فأتيت النبي ﷺ فأخبرته.

فغضب حتى رأيت الغضب في وجهه، ثم قال:

«يرحم الله موسى، قد أودى بأكثر من هذا فصبر» ^(٢).

فصاحة الجمال الصامت

لكن السلب يتعدى أن يكون كلاماً معيباً يتناول الآخرين بأذى ويظل قائل القول الحسن المفيد ناقصاً أيضاً إذا لم تسعف الأعمال دعواه العريضة، وهى صورة من الصور المرجوحة رصدها المربون فأنكروها، وبينوا كيف أن قوماً:

إذا نصبوا للقول قالوا فأحسنوا ولكنّ حُسنَ القول خالفه الفعلُ
ورصدوا حالة معاكسة طرأت كان الأقدمون ضدها، يوم أظهروا الدأبَ الصامت.

وكان البرُّ فعلاً دون قول فصار البرُّ نطقاً بالكلام

وساد عُرْفُ التفاح، فاسترخت أيادى التفاح، حتى:

«نطقنا بالعربية فما نكاد نلحن، ولحنا بالعمل فما نكاد نُعرب».

كما عبّر إبراهيم بن أدهم.

أو أنك «قد قنعت بفصاحة اللسان مع عجمة الجنان، إذا لا ينفعك الفصاحة للقلب لا للسان».

فى تعبير عبد القادر الكيلانى.

وسبب ذلك: خلل في ركن الإخلاص والعياذ بالله، وقد بينه الجُنيد البغدادي في معادلة واضحة، أنه:

(يخلص إلى القلوب من بره على حسب ما تُخلص القلوبُ عند ذكره).

ثم قال: «فانظر ماذا خالط قلبك»؟

فالعَمَلُ الصالح بر، وإنما يأذن به الإخلاص، فإن لم يوفَّق القلبُ إلى مزيد بر فالواجب أن تفحص كفحص الأطباء عن أخلاط ومكدرات وشوائب تعيق.

بل لا يحتاج صاحب الإخلاص إلى تذكير الآخرين بما عنده، وما هو بحاجة إلى دعاية أو دفاع عن النفس، إنما هو مثل زهرة ينتشر ريحها ويجبر المار بجوارها على الالتفات والاستمتاع بشذاها الزكي حتى لو لم يرها أول مرة.

«فمن أصلح سريره فاح عبير فضله، وعبقت القلوب بنشر طيبه. فالله الله في السرائر، فإنه ما ينفع مع فسادها صلاح ظاهر»^(١).

وكلما وعى الدعاة هذه الحقائق أكثر تقلصت احتمالات الفتن في دارهم، واضمحل ما يلازمها من تكبر وحسد وجدال، وكان عمرو بن قيس الملائي يرى رءوس التواضع ثلاثة، أحدها: «أن لا تحب الرياء والسمعة والمدحة في عمل الله»، وكانت وصية يحيى بن أبي كثير أن: «تعلموا النية فإنها أبلغ من العمل».

فخذ برأس الأمر أيها الأخ الداعية، ولا تستغرب كثرة التوصية بهذه المعاني التي مرت عليك عند الابتداء، فإنها تلزمك عند التوسط أيضاً، وعند الانتهاء فإن «أقرب الناس من الرياء آمنهم له» كما يقول التابعي عبدة بن أبي لبابة.

حين تغوص في الأحوال القدام

وخبر هذه الاختلاطات القلبية وازدواج النية خبر عجيب غريب، حتى أنها قد تستدرج العالم أو الداعية إلى أرض الحسد وهو يظن أنه يحسن صنعا، ويتوهم أنه يسعى إلى حق أقره الشرع عليه، وقد ضرب الإمام الغزالي في الإحياء مثالا لورود هذا الالتباس في الحياة العلمية، يمكننا أن نقيس عليه شيئا يحدث في الميادين الدعوية، وفي المثال كشف لأسرار النفس الإنسانية يحتاج الدعاة تعلمه، وفيه وصف

(١) صيد الخاطر لابن الجوزي/ ٢٠٧.

لنوع خفى من الفتن حرى بهم أن يفقهوه .

ويبدأ الغزالي بالتذكير بـ «أن الباعث للأكثرين على نشر العلم: لذة الاستيلاء والفرح بالاستتباع والاستبشار بالحمد والثناء، والشيطان يلبس عليهم ذلك ويقول: غرضكم نشر دين الله والنضال عن الشرع الذى شرعه رسول الله ﷺ وترى الواعظ يمن على الله تعالى بنصيحة الخلق ووعظه للسلطين، ويفرح بقبول الناس قوله وإقبالهم عليه، وهو يدعى أنه يفرح بما يسر له من نصرة الدين، ولو ظهر من أقرانه من هو أحسن منه وعظاً وانصرف الناس عنه وأقبلوا عليه ساء ذلك وغمه، ولو كان باعته الدين لشكر الله تعالى إذ كفاه الله تعالى هذا المهم بغيره، ثم الشيطان مع ذلك لا يخليه، ويقول: إنما غمك لانقطاع الثواب عنك لا لانصراف وجوه الناس عنك إلى غيرك، إذ لو اتعظوا بقولك لكنت أنت المثاب، واغتمامك لفوات الثواب محمود، ولا يدرى المسكين أن انقياده للحق وتسليمه الأمر أفضل وأجزل ثواباً وأعود عليه فى الآخرة من انفراده، وليت شعرى لو اغتم عمر - رضى الله عنه - بتصدى أبى بكر رضي الله عنه للإمامة: أكان غمه محموداً أم مذموماً؟ ولا يستريب ذو دين أن لو كان ذلك مذموماً، لأن انقياده للحق وتسليمه الأمر إلى من هو أصلح منه: أعود عليه فى الدين من تكفله بمصالح الخلق مع ما فيه من الثواب الجزيل، بل فرح عمر رضي الله عنه باستقلال من هو أولى منه بالأمر، فما بال العلماء لا يفرحون بمثل ذلك؟

وقد ينخدع بعض أهل العلم بغرور الشيطان فيحدث نفسه بأنه لو ظهر من هو أولى منه بالأمر لفرح به، وإخباره بذلك عن نفسه قبل التجربة والامتحان محض الجهل والغرور، فإن النفس سهلة القيادة فى الوعد بأمثال ذلك قبل نزول الأمر، ثم إذا دهاه الأمر تغير ورجع ولم يف بالوعد، وذلك لا يعرفه إلا من عرف مكاييد الشيطان والنفس وطال اشتغاله بامتحانها، فمعرفة حقيقة الإخلاص والعمل به بحر عميق يغرق فيه الجميع إلا الشاذ النادر والفرد الفذ، وهو المستثنى فى قوله تعالى: ﴿لَا يَعْصِيكَ مِنْهُمْ الْغَافِلِينَ﴾ (١)، فليكن العبد شديد التفقد والمراقبة لهذه الدقائق، وإلا التحق باتباع الشياطين وهو لا يشعر» (٢).

فأعد التأمل فى هذا النمط من السلوك النفسى: يفتح لك باب عريض من فقه القلوب ينجيك بإذن الله من ضيق الفتن التى قد تغرى داعية بالتنافس مع داعية آخر،

فيتبرم من وجوده وكلامه ودروسه، وما ثمَّ غير الحسد، والعياذ بالله، فيأخذ بالوشاية عليه لدى الأمراء.

وكان من الممكن لهذا النوع من الحسد أن يكون محدود الأثر، لكن طبيعته تترك قلب الحاسد يغلى، فيستهلك نفسه، ويطمع الشيطان أن ينال أكثر، فيغري الحاسد بالنميمة والوقعة بين المحسود وإخوان له، فيتعدى الأثر، وتعم البلوى.

هذه الحالة هي التي شكها الكثير من فقهاء المسلمين ونبلائهم، جيلاً بعد جيل، وما يزال يشكوها بعض الدعاة، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وتنطق بها تقارير وشهادات ومحاكمات.

وإنك لتسمع توجع محسود يقول:

أفشى علىَّ مقالة ما قلتها وسعى بأمر كان غير سديد

فينعصر قلبك: تألم لأله، وتأسف لهذا التردى الأخلاقي.

ثم تلتفت، فتصادف مُصلياً يدعو ربّه أن يعصمه من «الغواية في الرواية»، فتتحيل كم أذت هذا المسلم غواية التلاعب بالألفاظ والحقائق.

وتستنبئ التاريخ عن أشد ما أرهق عبد الله بن الزبير - رضي الله عنه - فإذا هو ما تابع فيه الأفوه الأودى في قوله:

ولم أرَ في الخطوب أشد وقعاً وأصعب من معاداة الرجال^(١)

فترى آهته هذه مجرد مفصل في السلسلة التي أدت به أن يُعلّق أمام الكعبة... فارساً لا يترجل...!!

وتستطرد القصص... ترى.

وعلاج هذه النميمة لا يكون بوعظ مقترفيها، فإن للشيطان عشيرة حَكَمَ بنمائها القَدَرُ، وهم بنسبهم في سرهم يفرحون ويفخرون، لكن العلاج الحاسم إنما يكون في صدود الثقة عن صاحب الإفساد الواشى، وتحسين الظن بالمؤمنين، وتقديم ما تعلم من خبر أخيك على خبر الهامس بأذنك، واستحضار سابقاته الخيرية، واستشهاد أيامه الماضية.

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي / ٢٠٣.

وهذا الطمع فى وعى الثقة ونباهة الأمير هو الذى عوّل عليه المظلومون دوماً،
فيهز أحدهم ضمير أخيه هزاً، وينطلق.

أليس من العدل أن تسمعاً	فأشكو إليك نَموماً سعى؟
فأبدعَ ما شاءَ فى فريّة	تأنّق فى صنعها وادّعى
وما كان لولا خلاجُ الظنون	ليرغبَ فى القول أو يطمعاً
وليس ملامى على من وشى	ولكن ملامى على مَنْ وعى
أيجمل بالعهد أن يُستباح	لواشٍ وللودّ أن يُقطّعا؟
ومن أشرك الناس فى أمره	دعته الضرورة أن يُخدعاً

وهذا هو البارودى (١) .. عاشق الحرية... ذو القلب الكبير، وقد ظن قلب
صغير أنه هزمه، لكن الأيام طمرته، وبقي الحر شامخاً.

وكان آخر قد تصدى من قبل، فجهر جَهْرَ الواثق من صحيفته ورصيده وماضيه
وحاضره، متعجباً من تغير أميره....

أما جربتني فخبرت منى	نصائح لم يمازجها خداع؟
ونطت بى المصاعب فاستقادت	مُطاوعة وكان بها امتناعُ
ولم تعثر بحمد الله منى	على عيب يكتُم أو يُذاعُ

هو الحريرى صاحب المقامات (٢)

فليس ملامهما على من وشى، لكن على من منَحَ الأذن الصاغية.

فالنصائح التى أضمرت أو أبديت لم تُحفظ... !!

والدأب الذى ذلل الصعاب لم يشفع... !!

وغلبت فرية ما هنالك... !!

وفى التفويض إلى الله تعالى مندوحة.

وهو الحكم - عز وجل -، يرفع ويخفض، وعنده سنجتمع.

لكن الناس يستعجلون..!!

وليست المنزلة أن تنال لقباً أو أن توضع في الصدارة، ولكنّ المنزلة أن تحتل حيزاً في قلوب المؤمنين، وأن تنادي ملائكة السماء أهل الأرض: أن الله تعالى أحب فلاناً فأحبه.

«إن قيادتنا للحياة هي القيادة، وليست مراكز المسؤولية التي تضعنا فيها التوزعات الدعوية ويمنحنا إياها أمير الدعوة.

صانع الحياة يدوس الألقاب برجله ويحطمها، ويمضي يصنع الحياة من موطن التخصص والفن والإبداع.

هو ملئ النفس ولا يحتاج أحداً ملئها.

الذي يُطالب بالمسؤوليات والألقاب الدعوية والنقابة والإمارة على المؤمنين إنما هو العاجز الذي لا يحسن عملاً ولا تخصصاً ولا فناً، فيطلب التعويض بإنعام الألقاب عليه، ويعارك، ويختلف، ويناضل دون مكتسباته السابقة، ويملاً الكواليس همساً وسعياً، وأما المقندر فيتقدم تقدم الواثق»^(١).

لما أطاع الهوى... هوى...!

إنّ قصص الخلاف و «الظلم الأخوي» تكشف الحاجة القصوى إلى عملية إعادة التربية وتركبة النفوس، فإن الأهواء وجدت لها مسرحة.

والنفس إن صلحت زكت، وإذا خلّت من فطنة لعبت بها الأهواء
لولا النميّة لم يقع بين امرئ وأخيه من بعد الوداد عداً
«وإن ما تسمع وترى من، خصام وافتراق، وبغض وشقاق، وجدال ومراء،
وتنافر وعداء، كل أولئك مما آثر الناس الباطل، ومالوا مع الهوى.

ودواء هذا الداء أن يُعرّف الناس الحق ويصبروا به ويُرغبوا فيه حتى يحبه
فيؤثروه، وأن يُعلموا العدل ويمرنوا عليه حتى يطيعوه، وأن يُكشف لهم الباطل
في شناعته، والجور في سيئاته، ويبين لهم كيف شقى بهما الناس»^(٢).

(١) صناعة الحياة / ٦٤.

(٢) الشوارد لعبد الوهاب عزام / ٣.

فإذا ظفرت بذى الوفاء فحطَّ رحلك فى رحابه
فأخوك من إن غاب عنك رعى وداذك فى غيابه
وإذا أصابك ما يسوء رأى مصابك من مصابه
وتراه يَجْعُ إن شكوت كأنَّ ما بك بعض ما به

ليس أقل من ذلك، ونرفض الدبلوماسية الباردة، والابتسامات المصطنعة
والمواساة الهامشية.

وإن مهمة التربية الدعوية فى كل حين أن تنتج نموذجاً مسلماً:

واضح المنهج يسعى دون غش أو نفاق
راضى النفس، كبير القلب، يدعو للوفاء
قلبه المؤمن بالخالق مشدود الوثاق
نبضه الذاكر يمتد إلى السبع الطباق

وواجب الداعية المتلقى أن يتجاوب مع مربيه فى الخضوع لهذه الخطط التربوية
النفسية، ليس تلهيه عنها ممارسة سياسية أو طموحات تخطيطية أو مهمات
تخصصية، بل ذلك أوجب وأكد له، لما فى الأداء الإدارى والسياسى من جفاف يضع
القلب على حافة الخطر، وعلى كل تلميذ «أن يستعين بطبيب ماهر، فإنه ليس كل أحد
يستطيع أن يرى الأشواك التى تصيب القلوب، وليس كل من يراها يستطيع أن يقتلعها»
وهو يحتاج فى هذا إلى نية وعزم على تحمل المرارة، مرارة المكاشفة الصريحة،
والإشارة إلى العيب، فإن أكثر النفوس فطرت على الجفلة من النقد، والتعالى على
النصيحة، وقد:

ضحكت وجوه التُّرَّهات ولم يزل وجه الحقيقة فى الأنام عبوساً^(١)

والناس تسترسل مع الأخلاق الخفيفة، والرياء، والمداينة، وتبادل المدح، ولكل
أحد حساب من «المقاصدة» فى ذلك، يوفى إلى الناس ويستوفى، ويصدر ويستورد،
ويُقرض ويستقرض، ولكن الحقائق كاسدة فى الأسواق، وهى على أرصفة الموانئ

مطروحة، لا يشتريها مستهلك، فقد حكم الدالون أن «موديلاتها» قديمة، وأنه قد تغيرت الأذواق، وأن الراغب بها يكره أن يدفع مُعَجَّلاً، نقداً، بينما تلك الترهات يؤخَّرُ ثمنها إلى أجل، وتقايض ببضاعة من جنسها «مقايضة».

✱ فانتفض أخى على المؤلف السائد، ولا تتبع المتساهل.

✱ فإنه «لا يغنى عنك ندمك إذا زلت قدمك».

✱ واعلم أن «أكثر الناس مع ظاهر النقود، ليس لهم نقد النقاد، ولا خبرة الصيارفة».

✱ وانظر إلى مراتب الناس وأحوالهم وأقوالهم، «وأعط كل ذى حق حقه، ولا تجعل الزغل والخالص شيئاً واحداً».

✱ واصعد ربوة الإنصاف «فإن من رقى إلى هذه الربوة بعين لا قذى بها: أبصر الحق عياناً بلا مرية، وأخبر عنه بلا فرية».

✱ وابراً من صاحب «إذا أقدمت أحجم، وإذا أعربت أعجم».

✱ فإنه ليس وراء الربوة غير السراب.

✱ وإنك فى متوالية لا تنتهى.

أرقامها...

دهرٌ... يغرُّ

وآمالٌ... تسرُّ

وأعمارٌ... تمرُّ

وأيامٌ... لها خُدَعٌ...



ركوب الأسنّة (٣)

وفى الصحراء هائم آخر ، بيده الملف الضخم ، ملف الهفوات يُحصيها على أصحابه ، وما من هفوة إلا ولها تأويل يصرف صاحبها عن السوء والعمد ويجعله فى دائرة الاجتهاد الذى يؤجر عليه ، ولكن النفس المنحرفة تتبرم .

وأعجب منه ظالم لا يحصى على أصحابه فقط بل على جماعة بأكملها ، وقد رأيت فى بعض البلاد ملفاً من نحو ألف صفحة سماه جامعه : «ألف خطأ وخطأ لجماعة كذا» ، يستخرج فيه من الكتب أقوالاً ، ومن التصريحات ومن هفوات أعضاء الجماعة ، ويفند ويتوتر ، ويرعد ويزيد ، ويدعو إلى الاستئصال وهدم هذه الجماعة المحتلة للساحة ، لتخلو الأرض ، لىنى - فى زعمه - بناءه الجديد مكانها ، ولم ير المسكين مناقب الجماعة وإنجازاتها بمقابل ذلك ، ولم يشفع أمرها بالمعروف ونهيها عن المنكر ، ولم يسمع أنات مسجونيه وراء حديد الظالمين ، ولا دماء شهداءها المراقبة ، ولم يفتش عن تأويل يزيل وهمه ، ولا عن عذر توجبه الموازنات بين درجات المصالح ونوايا درء المفساد التى أذن بها الفقهاء ، وما درى أن الشيطان يؤزه للهدم ، فإذا خلت الأرض : صرف همته عن البناء البديل ، ورجع بوزر الصد عن سبيل الله . . . !!

وفى هذه الصحراء ، تائه آخر يستبد به القلق ، ويغلو فى الأسلوب ، فيتورط بمدح مبالغ فيه ، ثم يتورط فى أخرى بدم كثيف ، فميزانه متأرجح ، وعياره حصاة التقطها جزافاً ، ليست سبيكة قد ختمها ولى السوق ورقب الحسبة بختمه .

حقائق.. وإن أنكرتها الأهواء

القضية ليست خاصة لنسكت ، وإنما هى حق عام ، لذلك يجب الحزم ، وتليق العقوبة .

إن الجماعات إن لم تحترم قوانينها ولوائح الحقوق والواجبات فإن المأزق يكون وشيكاً ، وفى كل عَرَصَة أذان لا يطربها ترجيع ولا حداء ، إنما تستروح لدقات المعاول .

والمنفرد لا يستطيع وحده أن يبنى نادياً ضراراً مهما تزعم أنه رأس ، ولكنه بالأعوان يستطيع ، ولذلك يكون محشر الأتباع مع الرأس الذى علمهم الظلم .

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ (١).

وكما شرع الله المكافأة شرع العقوبة.

بل العقوبة بلا رأفة إذا كان السوء بالغاً.

﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢).

وكما نحب البعض في الله نكره آخرين في الله.

وإنما علا الإسلام زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لأنه كان حازماً.

وهناك جماعة . . . ليس دكان بقال.

فمن يشعر بشعور باطل نقول له: اجعل نفسك وراء ظهره.

وعلى المحاسبة تُبنى حياة الجماعات.

والحلل العاطفية تذهب . . . مع الريح.

والالتزامات الطيارة . . . ستطير، ولبثها قليل.

فمن يقيم أبنية الضرار، ويهتك الأسرار، ويحدث ثغرة في الأسوار:

ندعوه إلى التوبة، فإن تاب وإلا فالإقصاء حق.

﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾ (٣).

أى ليست مجرد فائدة ومصلحة، بل حياة.

إذا لم يكن إلا الأسنة مركباً فما حيلة المضطر إلا ركوبها؟

وصاحب الزلل نبين له طريق التبرؤ من الهوى، فإن حاله التوفيق وندم على ما كان طولب بيعة.

وبعض أهل الإصرار يرون في البيعة مذلة، فيحجمون.

(١) سورة القصص: ٨.

(٢) سورة النور: ٢.

(٣) سورة البقرة: ١٧٩.

وهذا انقلاب فى الموازين: أن تكون السنّة بدعة...!!

لا نطلب طاعة بالإكراه، ولكن إن رغب أحد بنيل شرف وأجر العمل الجماعى فعليه الالتزام.

الباب مفتوح بهذا الشرط، ثم يحار المتردد... ويظماً...!!

توبة الصالح.. فريدة..!

وقد ضرب الأستاذ صالح عشاوى - رحمه الله - مثلاً لهؤلاء، لعلمهم بقصته وتوبته يقتدون.

كان الأستاذ - رحمه الله ورفع درجته - من قدماء الدعاة ورجال الرعيل الأول، ولبث مع الإمام المؤسس دهوراً كأحسن ما يكون الداعية عملاً، وأصبح عضو المكتب، فلما قُتل الإمام - رحمه الله - والمحنة جاثمة اختلطت أوراق، واشتبهت أمور، وتحركت وساوس، فافتتن نفرٌ وجعلوا الأستاذ رأساً عليهم، ثم مرت السنوات الحالكة، وطالت المحنة فندم على ما كان منه، وطلب أبلغ صور التوبة النصوح.

وقد زرتُ دار مجلة الدعوة يوماً فوجدت شيخاً وقوراً يجلس بتواضع على كرسي خيزران قديم خارج باب الشقة كأنه بواب، ولكنه مهيب، وله طلعة نورانية. فسلمت عليه واستأذنته، فأذن، فدخلت، فقال لى أخٌ ممن هناك: هل عرفتَ ذاك الرجل المحترم الذى كأنه بواب؟

قلت: لا، لكنه استرعى اهتمامى.

قال: ذاك صالح عشاوى، يرى أن نفسه استروحت يوم جعله المشاكسون رأساً ونادوا به أميراً، وعزم على أن يرجع جندياً فى آخر الصف، ويصر على أن ذلك من تمام توبته، فاختار أن يكون بواباً، ولو يعلم أن هناك منزلة أدنى من منزلة البواب لسارع إليها، يلغى بذلك ما سلف منه من تطلع للصدارة.

فعجبتُ ودهشتُ لهذه الروح الصافية والقلب الكبير.

ثم قال لنا الأستاذ عمر التلمساني - رحمه الله -: دعونا له، ودعونا أن يكون
أخاً لنا يشارك كالآخرين، ويتوب الله على من تاب، ولكنه أبى ورفض، وأصررنا
وبلغنا غاية الجهد في إقناعه، لكنه أصر إصراراً على أن يعاقب نفسه بالتأخير.

ثم خطبنا الأستاذ عمر - رحمه الله - بعد سنوات فقال:

لقد تاب الأستاذ صالح عشاوى توبة أحسبها لو وزعت على دعاة الإسلام في
القاهرة جميعاً لوسعتهم.

- رحمهم الله جميعاً، وعصمنا من الفتن بعدهم -.



ميثاق الأمن الدعوى

وخطب فينا هُمام أحزنه جدُّ قعد بدعاة الإيمان، فنطق بحروف حرى أن تخط
بقلم كوفى عريض، معلناً فينا دستور حقوق العمل الإسلامى .

قال جزاه الله خيراً وزاده فصاحة:

إن تَنخِصُ أخلاق الرجال واجب ..

لأن السلوكيات تتكرر فى الأجيال ..

وتتجدد الأنماط النفسية حتى لكان نسباً واحداً يجمعها ..

وقد يلجأ الأمير إلى حماية الجماعة بسياسة الحزم ..

فيرفض التمييز والتردد والمواقف القلقة ..

وفقه الضرورات ومنهج الاحتياط رديف لفقهِ الموازنات المصلحية ..

وإن تنزعية الاختلاف لا تلغى أفضلية الاتفاق

والآمال .. العريضة لأبد لها من نفوس عالية ..

والتأصيل أساس فى دهرِ الفتن ..

والنص التنزعى حجة .. وأما التحليل فلكلّ مورده ..

ولا يكون الاجتهاد حجة على اجتهاد آخر ..

إنما اجتهاد الأمير مُقَدَّم ..

وينبغي أن يغلب العقل العاطف ..

وليسَت الجماعة حنند أسماء .. وإنما كتلة قلوب ..

تقودها قيم .



أحاديث شريفة (٤)

ونصوص القرآن والحديث الشريف تشهد للأمرء وتمنحهم حق الطاعة، لكن بعض من يُحاور في قضايا الفتن يظن أن هذه الآيات والأحاديث لا تنطبق على علاقات الإمارة والجنديّة في الساحة الدعوية، ويذهب إلى أنها غير صالحة للاستشهاد بها، لأنها إنما وردت في الأمير الذي يحكم كل أو بعض بلاد المسلمين حكماً سياسياً من خلال دولة ونظام.

ولسنا نجادل في أنها وردت في ولاة الحكم، ولكن معناها يتعدى ليسرى على الإمارة الدعوية من خلال القياس الأصولي، وعبر استحضار الروح العامة للشرية في باب الإمارة، وهى الروح التى احتكم لها ابن تيمية فى بعض إفتائه، وعنصر القوة فى قبول هذا القياس أن البيعة لأمرء الدعوة انعقدت بعقد رضائى تام، وألزم الدعاة أنفسهم بهذه الطاعة اختياراً، لما قام فى قلوبهم من معنى لزومها لإيجاد حقيقة العمل الجماعى الكفيل بوضع الدعوة فى موضع المكافأة لخصوم الإسلام فى ساحة التنافس، ولم يقل أحد من الدعاة بلزوم طاعة عامة المسلمين لأمرء الدعوة، وإنما مضى مذهبهم بوجوبها على من بايع عن قناعة واختار هدر حقوقه فى الاجتهاد والتصرف إذا خالفتهما توجهات وأوامر أمرء الدعوة. ويزداد رجحان صحة هذا القياس إذا كان الدعاة فى زمان أو مكان ليس فيهما حاكم شرعى أتت به بيعة شرعية شورية، فتكون مسارعة الدعاة إلى مبايعة أمير دعوى نوعاً من التعويض المستند إلى منطق فقهى صحيح، لما تؤدى إليه هذه البيعة الناقصة الحالية من احتمال إحلال البيعة السياسية الحكيمة فى عالم الواقع مستقبلاً، وما لا يدرك كله لا يترك جُله، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وسيأتى من كلام ابن حجر ما يؤيد هذا القياس.

فاترك تساهل من يعفيك من صرامة الأحاديث النبوية الشريفة الواردة فى الأمرء بحجة عدم انطباقها على الواقع الدعوى، وعظ نفسك بها، وتأمل معانيها جيداً، فإن لك فيها بإذن الله عصمة من شطط وقع فيه نفر ممن مرَّ قبلك.

أخرج البخارى فى صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبى ﷺ قال: «مَنْ كره من أميره شيئاً فليصبر، فإنه من خرج من السلطان شبراً مات ميتة جاهلية»، وفى لفظ «من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر عليه، فإن من فارق الجماعة شبراً فمات إلا مات ميتة

جاهلية» (١).

«وقال ابن أبي جمرة: المراد بالمفارقة: السعى في حلّ البيعة التي حصلت لذلك الأمير ولو بأدنى شيء، فكفى عنها بمقدار الشبر» (٢).

«والمراد بالميتة الجاهلية - وهي بكسر الميم - : حالة الموت كموت أهل الجاهلية على ضلال وليس لهم إمام مطاوع، لأنهم كانوا لا يعرفون ذلك، وليس المراد أنه يموت كافراً، بل يموت عاصياً» (٣).

* وأخرج البخاري عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: «دعانا النبي صلى الله عليه وسلم فبايعناه، فقال فيما أخذ علينا أن بايعنا على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا، وعسرنا ويسرنا، وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان» (٤).

* وذكر ابن حجر أن في رواية عند ابن حبان وأحمد: «إلا أن يكون معصية لله بواحاً».

ثم قال: «قال النووي: المراد بالكفر هنا: المعصية، ومعنى الحديث: لا تنازعوا ولاية الأمور في ولايتهم ولا تعترضوا عليهم إلا أن تروا منهم منكراً محققاً تعلمونه من قواعد الإسلام، فإذا رأيتم ذلك فأنكروا عليهم وقولوا الحق حيثما كنتم. انتهى. وقال غيره: المراد بالإثم هنا والمعصية: الكفر، فلا يعترض على السلطان إلا إذا وقع في الكفر الظاهر».

والذي يظهر: حمل رواية الكفر على ما إذا كانت المنازعة في الولاية، فلا ينازعه بما يقدر في الولاية إلا إذا ارتكب الكفر، وحمل رواية المعصية على ما إذا كانت المنازعة فيما عدا الولاية، فإذا لم يقدر في الولاية نازعه في المعصية، بأن ينكر عليه برفق ويتوصل إلى تثبيت الحق له بغير عنف، ومحل ذلك إذا كان قادراً، والله أعلم. ونقل ابن التين عن الداودي قال: الذي عليه العلماء في أمراء الجور أنه إن قدر على خلعه بغير فتنة ولا ظلم وجب، وإلا فالواجب الصبر، وعن بعضهم: لا يجوز عقد الولاية لفاسق ابتداءً، فإن أحدث جوراً بعد أن كان عدلاً فاختلفوا في

(١) صحيح البخاري ٥٩/٩ طبعة صبيح. (٢) فتح الباري لابن حجر ١٣ / ٩ طبعة الخطيب.

(٣) فتح الباري لابن حجر ١٣ / ٩ طبعة الخطيب. (٤) صحيح البخاري ٥٩/٩.

جواز الخروج عليه، والصحيح المنع، إلا أن يكفر فيحب الخروج عليه» (١).

وفى هذا الكلام قاعدة دعوية مهمة جداً، فقد توهم بعض من يجرى مع الظاهر بلا فقه أن المسلم عليه أن يقف صامتاً إذا لم ير الكفر وليس كذلك الأمر، بل عليه أن يأمر وينهى وينكر على الحكام أصحاب المعاصي، فإنما اختلفوا في جواز منازعتهم في الولاية، ولم يختلف الفقهاء في وجوب الإنكار عليهم والصدع بالحق، فتأمل.

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر» (٢).

وقد تكلم ابن حجر في توجيه إطلاق الكفر على قتال المؤمن فقال: «إن أقوى ما قيل في ذلك أنه أطلق عليه مبالغة في التحذير من ذلك لينزجر السامع عن الإقدام عليه، أو أنه على سبيل التشبيه لأن ذلك فعل الكافر» (٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن أطاع أميري فقد أطاعني ومن عصى أميري فقد عصاني» (٤).

قال ابن حجر: «في رواية همام والأعرج عند مسلم: ومن أطاع الأمير، ويمكن رد اللفظين لمعنى واحد، فإن كل من يأمر بحق وكان عادلاً فهو أمير الشارع، لأنه تولى بأمره وبشريعته، ويؤيده توحيد الجواب في الأمرين، وهو قوله: فقد أطاعني، أي عمل بما شرعته، وكأن الحكمة في تخصيص أميره بالذكر أنه المراد وقت الخطاب، ولأنه السبب ووقع في رواية همام أيضاً: ومن يطع الأمير فقد أطاعني بصيغة المضارعة، كذا: ومن يعص الأمير فقد عصاني، وهو أدخل في إرادة تعميم من خوطب ومن جاء بعد ذلك» (٥).

وهذا الكلام من ابن حجر في غاية الأهمية، لما فيه من تأييد ما ذهبنا إليه من القياس الأصولي لأمر أمراء الدعوة الذين يأمرون بالحق على أمراء الحكم، مما ذكرناه آنفاً.

(٢) صحيح البخارى ٦٣/٩.

(٤) صحيح البخارى ٧٧/٩.

(١) فتح البارى ٩/١٣.

(٣) فتح البارى ٣١/٣٠.

(٥) فتح البارى ٣١/١٢٠.

* وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلوات الله عليه وآله قال: «السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحبَّ وكره ما لم يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة» (١).

* وقال النبي صلوات الله عليه وآله لعبد الرحمن بن سُمرة رضي الله عنه: «يا عبد الرحمن لا تسأل الإمارة، فإنك إن أعطيتها عن مسألة: وكلت إليها، وإن أعطيتها عن غير مسألة: أعنت عليها» (٢).



قال لى... وقلت (٥)

لما صدرت مقالة المعلقة أول مرة : طبع داعية أنها انحياز لجانب الأعداء، فجرى بينه وبينه داعية من أهل الفضل والفقه هذا الحوار النافع، ونشره آنذاك، وقد رأيت إلحاقه برسالة فضائل الفقه تعميماً للفائدة...

قال لى: يا أخى لا تشددوا على الداعية، إنه صادق النية، وقد مارس حقه فى الاجتهاد، وأنه مأجور بأجرين إن أصاب، وأجر واحد إن أخطأ.. فلماذا هذا الرد العنيف عليه، ألا يترتب على هذا كبت طاقات الداعية، وتعويده على الطاعة العمياء، وبالتالي ينشز جيل من «الموافقين..» ويسير فيهم أمر الأمر بدون نقاش ولا رد، ثم ينشأ جيل تُقتل فيه روح الإبداع؟

***قلت:** صدقت يا أخى، إن التشديد ليس مطلوباً إلا فى حالاته الضرورية - وجزاك الله خيراً - ولكنى رأيت أن هذه الحالة شئ آخر، وقبل كل شئ يجب أن نعتقد أن صدق النية وعكسها لا نتحكم فيهما الآن، وهما من الأمور المتعلقة بقلب الفرد، ومدى تربيته، ودرجة تقواه.. وإن كانت هناك دلالات وقرائن على ماهيتها، وقد يشعر بها صاحب البصيرة والفطنة والفراسة ولا ننكر هذا، ولكن الذى هو خاضع للموازن هو ظاهر الأمر، بل هو الذى سميت «اجتهاداً».. فالاجتهاد ليس عملية غيبية خفية، أو أهوائية ميلية، إنما هى محكومة بضوابط شرعية، وموازن ثابتة. لا يمكن تجاوزها أو العدول عنها.. فالمنكر لا يصبح معروفاً إلا إذا كان الاجتهاد اشتهاً، يعدل وشتان بين الاجتهاد والاشتها.. فالمنكر يظل منكراً، والمعروف يظل معروفاً، ولا يتحول إلى منكر بالاجتهاد.

بل يا أخى: ومتى صار تحكيم الضوابط وسد باب الأهواء كبتاً للطاقات، وإنشاء لجيل من الغافلين الموافقين..؟ فكما أن الدعوة لا تريد الغافلين النائمين، فكذلك لا تريد الجماعة الغوغائيين الأهوائيين، بل نريد بناء جيل واع للواقع ومدرك للأوضاع، ومطيع للأوامر بالمعروف بعد أن عرفناه به، وصابر على ولى أمره، مقدر لظروف الآخرين، ويضع الاجتهاد فى مواضعه الصحيحة، ويوضح آراءه وفق القواعد

والموازن الشرعية، وخلال القنوات الرسمية.

*** قال لي:** إذا كنت تشير إلى الصبر على زلة الأمير، فلماذا لا تشير إلى تحمل الأمير لزلات أتباعه، وسعة صدره تجاههم حيث إنه ولي أمرهم وأخوهم الكبير، وأنهم خطاءون وليسوا معصومين عن الزلل والخطأ.

**** قلت:** صدقت - جزاك الله خيراً - ولكن اعلم يا أخى أن المسؤوليات متوزعة، وأن كل نفس بما كسبت رهينة، وأن خطأ الطرف الثانى - مهما كان كبيراً - لا يغطى خطأ الطرف الأول ولا يمسه، فالأصل أن يتخذ كل شخص موقفه، ولا يشغل بعيوب غيره عن عيوب نفسه... ولتشفع حسنات الأخ عندنا لسيئاته... ولتأكد جيداً أن انقيادنا لفلان من الناس ليس لنفسه، وإنما لأمر الجماعة، وانضمامنا للجماعة ليس لمصلحة دنيوية وإنما لحسن أداء واجبنا الدينى، والقيام بالتعاون جماعياً على البر والتقوى... إذا فالسمع والطاعة فى المنشط والمكره، والصبر على الأمير وغيرهما من الأحكام المستمدة من النصوص والأحداث التاريخية فى السيرة المطهرة، بل وإن تأكيد الآية على الطاعة فى بيعة النساء ﴿وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾^(١) فيها دلائل واضحة على أن هناك حالات تحتاج إلى صبر من المأمور، وأن الطاعة لا تكون فى المنشط دائماً، وإنما تكون فى المكره أيضاً، وسواء أكان هذا الكره ذوقياً أم عن اجتهاد واشتراء، ففى كل الحالات تلزم هذه الطاعة... أما الشرط الثانى من القضية أن يكون الأمر فى معروف، ولا طاعة فى المعصية، فهذا واضح بملاحظة كلا الجانبين حيث يجب:

*** أولاً:** التأكد من تحقيق معروفة المعروف، وماهية المنكر، وأن يكون حكمهما متحققاً لدى المأمور، فمتى ما تأكد من معروفة الأمر بمعناها الواضح بنص أو إجماع أو قياس أو اجتهاد منضبط، فليس له غير الطاعة آنذاك، وإذا ما تأكد بتحقيق أن الأمر ليس بالمعروف، أو أنه أمر بمعصية فليس له الطاعة عندئذ.

*** وثانياً:** أن اعتبار الأمر معروفاً أو منكراً خاضع لقواعد وموازن شرعية كما أشرنا، ولا يتجرأ المؤمن أن يتهم أميره الذى هو ولي أمره بالخطأ فى تشخيصه، ويصوب رأى نفسه، فليس اجتهاده أولى من اجتهاد غيره، بل يصعب على المؤمن أن يميز بين المنكر الشرعى، وبين المعروف المستكره... فسمعه وطاعته لأمره فيما أمر به

(١) سورة الممتحنة: ١٢.

من «معروف» مكروه لديه، أسلم لدينه من أن يحسبه معصية، وما يتجنبه من منكر احتمالي أولى من أن يقع فى منكر يقينى، ألا وهو العصيان، وعدم الالتزام، وشق الصف، وفتنة الابتعاد عن الجماعة، ومآله إلى الهلاك، أو الوقوع فى الفتنة.

أما مسألة العصمة والخطأ فكلنا نردد هذه العبارات: أن الكل خطاءون، وأن الكل ليسوا معصومين، ولكننا مع الأسف فى التطبيق العملى لا نلتزم به، وكأنه شعار للرفع فقط.. فندعى العصمة لأنفسنا حينما ندافع عنها، ولا نلجأ إلى كوننا من الخاطئين إلا عند الحاجة أو التبرير... ونطالب الناس بالعصمة، ولا نغفر الخطأ الصادر عنهم، ولو أخذنا بمبدأ أن: «كل ابن آدم خطاء» وعدنا إلى الصواب والرشد، لما دافعنا عن أنفسنا بكل هذه القوة، ولما حاسبنا غيرنا بهذه الصرامة.

*** قال لى:** يا أخى أنت كأنك وزير إعلام «للكبار»، ألا تلتفت إلى وضع «الصغار» وما يعانونه من مأسى الغربة والفقر، والإهمال التكافلى، وإلى ظروفهم النفسية، وما يحيط بهم من إحباط.

**** قلت:** يا أخى لست وزيراً، ولا إعلامياً كاذباً، وإنما أجتهد أن أبين ما أرى فيه الالتباس.. وليس فى الدعوة - فى تصورى - كبار ولا صغار، وإنما همنا «الأخوة» بمعناها الواسع «حقوقاً وواجبات» وهنا يتحقق معنى التكليف الشرعى، فالكل عليه أن يحمل مقداراً منه بالقدر الذى يقدر على أدائه، ويتمكن من حسن أدائه.. فالكبار - بتعبيرك - تحملوا العبء الأكبر، والمقدار الأكثر من المسئولية الشرعية وعلينا أن نعينهم بدعواتنا ونصائحنا، وجهدنا التنفيذى المكثف، وما به تتحقق مصالح الجماعة من العمل المشترك والكبير هو الذى يؤدى دوره الكبير، ويتحمل المشاق والصعاب، ويسهر على مصالح الدعوة، ولا يدخر جهداً لإعلاء كلمه الله تعالى مهما يكن موقعه، فهذا هو الكبير فى ميزان الله تعالى، والصغير هو غير ذلك، مهما كان مركزه، أو مهما قال عنه الآخرون.

أما ما يعانيه الصغار - بتعبيرك - من المأسى، فليست هى ميزتهم وحصتهم وحدهم، فدنيا المسلمين اليوم والميدان الإسلامى عمومياً، يتوج بهذه الحالة، والأفضل لنا أن نبذل جميعاً الجهد العملى بأنفسنا، وأن نبدأ برفع هذا الكابوس النفسى

والمادى ولا نتظر أحداً.. وكل يقوم بدوره الإيجابى، وكل يقوم بما يستطيع أن يؤديه وأمثل لك بمثال بسيط الدعوة كمركبة «سيارة» وقيادة الدعوة سائقها والعاملون فى الدعوة ركابها.. والناس هم الجهة التى يتوجه الركاب إليها، فترى السائق يتمتع بوضعية خاصة من الحقوق؛ يتميز فى كرسيه، ويقدم له الشاى والمأكولات قبل باقى الركاب، وله حظوة خاصة عند المطاعم والمقاهى وغير ذلك.. أما واجباته فواضحة، فهو يسهر الليل والنهار ولا يغمض له جفن فى الوقت الذى ترى فيه بقية الركاب أحراراً فى نومهم وتصرفاتهم، وليس أحداً من الركاب مسئولاً حتى عن حياة كل الركاب.. لأنه مسئول عن حياة نفسه.. فليس من الإنصاف نسيان الواجب الصعب، والمنصب الحساس هذا، ومحاججته فى كرسيه المنفرد الشاى المقدم له، وما إلى ذلك من الجزئيات التى لا يقارنها العاقل الورع النصف مع تلك الواجبات الخطرة والمتاعب الشديدة التى يعتمد عليها مصير المركبة وركابها، وهكذا يقاس الأمر الدعوى والداعية اللبيب يفهم مغزى المقارنة.

فطوبى لمن شغلته عيوبه عن ذكر عيوب الناس، وقدر ظروف كل داعية فى موقعه المناسب والمستحق له، ووازن بين حقوقه وواجباته.

*** قال لى: نعم، طوبى له ولكن الأمور ليست هكذا هينة.. فالحديث متعلق بنفسيات البشر وخصائصهم.**

**** قلت: يا أخى إن الأمر لا يستدعى هذا التفاهم والتضاحم.. فإن الإنسان بمهمته يقلع الجبال.. فاصرف همتك على الانشغال بنفسك والقيام بما هو تكليف عليك، ولا تفكر فيما يجرى حولك، ومن يُجرىه، وخلص نفسك من هذه الهموم الزائدة.. ولا تهتم بأقوال الناس، وأد ما استطعت عليه من واجب وتوكل على الله وحده.**

*** قال لى: سأفعل، ولكن هذا يحتاج إلى صبر، ومصابرة.**

**** قلت: وهل يقوم قيام العبد إلا بالصبر.. استعانة به وتواصياً، واتصافاً، وتخلقاً.. ولا تنس أن الصبر قد أمر به رسول الله ﷺ وركب المؤمنين الذين**

معه، أن يصبروا مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي . . بل هو من الأمور المقارنة لعملية التواصى بالحق، كما فى سورة العصر، ولا بد من الصبر على التكاليف الدعوية، كما ينبغى الصبر على الأمراء والقادة، كما تقتضى الدعوة الصبر على الجنود والأتباع، وفوق ذلك كله، الأجر الجزيل والمثوبة عند الله تعالى .

✱ فقال لى: جزاك الله خيراً كثيراً، فلقد وعظت ووفيت .

✱✱ فقلت له: وجزاك خيراً على حسن الاستماع، والمؤمن مرآة أخيه، ووقفنا الله جميعاً لما يحبه ويرضاه .

